مجلة آفاق علمية ISSN: 1112-9336
المجلد: 14 العدد: 2 السنة 2022 ص 398 - 409

تاريخ الإرسال: 2020/10/01 تاريخ المراجعة: 2022/03/29
تاريخ القبول: 2022/04/24

المضامين الثورية في شعر "محمد بن رقطان" بين الالتزام والجمالية
the revolutionary contents in the poetry of Muhammad bin Roqtan between commitment and aesthetics

وداد غلوج[1] ؛ أ. د: عبد العزيز بومهرة[2]
جامعة قالمة (الجزائر)، ghelloudjwed@gmail.com[1]
جامعة قالمة (الجزائر)، b.abdelazz@gmail.com[2]

الملخص:

يهدف هذا البحث إلى إزالة الغموض عن قضية الالتزام في الشعر الجزائري المعاصر، فاستعنا بأعمال الشاعر "محمد بن رقطان" مستهدفين دلالة الثورة وتأكيدها والبحث عمّا تميّزت به من أبعاد فنية على مستوى الشكل؛ وصولا إلى العلاقة التكاملية بين الالتزام والفن، وما ينتج عنهما من تأثير في نفس المتلقي. ورغبة الشاعر في الإصلاح، وتغيير الواقع إلى الأحسن.

الكلمات المفتاحية: الالتزام، الثورة، محمد بن رقطان، الشعر، الفنية.

Abstract:

This research aims to demystify the issue of commitment in contemporary Algerian poetry, so it sought help from the works of the poet "Muhammad bin Roktan"; aiming at the significance and confirmation of the revolution and the search for the artistic dimensions that distinguished it in terms of form. Up to the complementary relationship between commitment and

art, and the resulting influence on the recipient's self, his desire for reform, and changing reality for the better.

Keywords: Commitment; Revolution; Muhammad bin Roqtan; Poetry; Technical.

المؤلف المرسل: وداد غلوج، الإيميل: GHELLOUDJWED@GMAIL.COM

1.مقدمة:

إذا كان الشعر هو الكلام المنبعث من أفواه الشعراء المبدعين، والنابع من أعماق النفوس، والأفئدة فإنّ ذلك لا يعني أبدا انفصاله عن الواقع المعيش؛ فالشاعر ابن بيئته وهو لسان حال قومه، وعلاقة الشعر بالحياة قضية نقدية قديمة ؛ فالشعر ديوان العرب ودستور حياتها، وسجل مآثرها، أمّا عن الشعر المعاصر فقد أصبح أشبه بالمرآة التي تعكس كل ما يظهر أمامها؛ فاستلهم الشعراء المعاصرون وقائع العصر، ومجرياته المتعاقبة، ومن هؤلاء الشعراء "محمد بن رقطان"* الذي عالج قضية الشعب الجزائري في فترة حرجة من فترات الوجود الاستعماري، فاستطاع أن يعكس إلى حد بعيد واقع الثورة الجزائرية في نصوصه الإبداعية التي عبّرت عن معاناة شعب أعزلَ عان في سبيل وطنه من الفقر، والجوع، والتشرّد، فلم يُقص الشكل، أمام عنايته بالمضمون، ولم يتجاوز القيم والأخلاق، وهذا ما أردنا بلوغه عبر دراستنا ذات البعد التاريخي والفني. وعليه يمكننا طرح التساؤلات الآتية في مقدّمة هذه الدراسة:

- إلى أي مدى كان "محمد بن رقطان" ملتزما بقضيته؟
- هل شكّلت قصائد "محمد بن رقطان" بناء متراصّا يجمع بين الشكل والمضمون، وفق سيّاقات تعبيرية امتزجت فيها أبعاد الثورة المجيدة بالقيم الفنية؟
- إلى أي مدى أسهم الاهتمام بالظواهر الفنية، واللغوية في إبراز الدلالة؟

يكمن الهدف المرجو من هذه الدراسة في إبراز الأبعاد الفنية في ثنايا القصائد، وتحليلها في ضوء المنهج الفني الذي يستثمر فروع اللغة المختلفة استثمارا فنيا.

ولتحقيق هذا الهدف وضع الباحث الفرضية المسبقة الآتية:

لعلّ الدارس للشعر الجزائري المعاصر يتأكّد بأنه قابل للتأويل ما دام هناك من يستنطقه ويُمعن في تأويله، كونه صيغ من قبل مبدعين حرصوا على أن تأتي أشعارهم زاهية الألوان، لتمنح المتلقي الرغبة في الاستمتاع بها ومحاورتها.

2. مظاهر الالتزام والثورة في شعر ابن رقطان:

كان ابن رقطان من أبرز الشعراء الذين وظّفوا شعرهم لخدمة وطنهم، وقومهم، والإنسانية بصفة عامة، لذلك نقف على محور أساسي في شعره لنستجلي ملامح الالتزام فيه، وهو البعد الوطني.

1.2 الانتماء:

يعدّ الالتزام من المبادئ التي بُني عليها الانتماء الوطني، الذي يعمل على تعزيز الروح الجماعية، وتقويتها فهو بمثابة " ضمير داخلي يوجّه الفرد ويرشده إلى ما فيه صلاح وطنه، فكلّما وجه الانتماء للوطن توجيها سليما، كلّما كان ذلك عاملا من عوامل بناء المجتمع "[1].

لقد كان حضور الوطن في شعر ابن رقطان مكثّفا، إذ توالى ذكره في أغلب شعر الثورة المجيدة، ومن أمثلة ذلك قوله[2] (البسيط):

أَقْسَمْتُ بِالوَطَنِ المقدّسِ فِي الوُجُودْ
بالتَّضْحِيّاتِ الغَالِيّـات وَبِالشّهـيدْ
بالذّكـــــرياتِ الخَـــالِدَاتِ عَلى ذُرَى
كُلّ الجِبَالِ منَ الحُدُودِ إلَى الحُدودْ

أنَّ الجَزَائِـــرَ لا تَـــزَالُ منيعَـــــةً
بِالأَوفِياءِ الصّامِدينَ من الأُسودْ
دَفَعُوكَ يَا ابْنِي للتــمرّدِ ضِدّهَـــــا
واسْتَغْفَلُوكَ وَأَنْتَ تَعْرِفُ مَا أُرِيدْ !
وَرَوَوْا شِعارًا مُسْتَعَـــارًا مِنْ هُـــنَا
أَوْ مِنْ هُنَالِكَ وَاسْتَخـفُّوا بالصُّمُودْ
نَـــشَرُوا بِأَرْضِـــكَ فِتْـــنَةً دمَوِيَّةً
واسْتَدْرَجوكَ إلى الجَريمَةِ بالوعُودْ
هَتَكُوا عَفَافَ المُسْلِمَاتِ ومَارَسُوا
ذَبْحَ الرّضِيعِ منَ الوَرِيدِ إِلَى الوَرِيدْ

إن أجمل المشاعر التي يحملها الإنسان هي حبه لوطنه، هذه المشاعر النبيلة التي تنبع من عمق الذات، وتتسم بصدق العاطفة، وهي استجابة لما يقدّمه الوطن من خيرات لشعبه، والشاعر ويتحدّث الشاعر هنا عن مجريات، ووقائع الحرب بين الشعب الجزائري المستضعف، والاحتلال الغاشم، وما خلّفه من عذاب وويلات في البلاد، من قتل وسفك لدماء الشعب، ودموع وتشريد لهم، وانطلاقا من هذه المواصفات نفهم أسباب ثورة الشاعر، فهو يثور من أجل الثأر لشقاء شعبه، والثأر لتلك البنت الجزائرية التي هتكوا عرضها، وسلبوا شرفها، والثّأر لذلك الطفل البريء الذي ذُبح بلا رحمة.

أراد الشاعر من خلال هذه الأبيات أن تمخُرَ عُباب بحر "البسيط" وهو بحر يتميّز " بالرّقة والعذوبة وامتداد النفس والقدرة على استيعاب الدلالات واحتضان المدلولات "[3]. فطبيعة الأوزان الموسيقية لا تظهر إلا بعد إخراجها شعرا، ولا يظهر تأثيرها وفاعليتها الموسيقية إلا من خلال اتحادها مع التجربة الشعرية، ولهذا انتجت

تفعيلات بحر البسيط في هذه المقطوعة إيقاعا متميزا ينسجم مع الحالة النفسية التي يعيشها الشاعر.

نحت الشاعر من لهيب الثورة معجما قويا يتناسب مع الغرض المنشود (التضحيّات، الشهيد، الجبال، التمرّد، الصّمود، الجريمة، الفتنة الدموية، الذّبح).

وممّا لا شكّ في أن هذا الحقل عبّر عن روح شعب صامد في معركة الحرية، وهي باب التحرر، والرفض، والتحدّي من أجل التغيير، وتحقيق النصر.

كرّر الشاعر لفظة (الحدود) في عجز البيت الثاني، ولفظة (الوريد) في عجز البيت الأخير، ليرسم ملامح الإيقاع العام للقصيدة، وليبيّن حسرته على الواقع البئيس الذي يتخبّط فيه وطنه، وشعبه.

كما التزم بالقافية المقيّدة التي يستدعيها معجم المعاناة والألم، والرفض، والتزم (الدال) رويا وهي " من الحروف التي يكثر مجيئها رويا في الشعر العربي، وقد قالوا عن الدال إنها تعبر عن صورة العاشق الذي صار على هيئة الدال من شدة الحزن، أما علماء الأصوات فيذكرون أنها صوت أسناني لثوي انفجاري مجهور "[4].

2.2 التغني بالثورة:

تتواصل نبضات الحس الوطني متدفقة في شعر ابن رقطان، فيسبح بقارئه في فضاء التاريخ، وبطولات الشعب الجزائري إبان ثورة نوفمبر المباركة. يقول[5] (المتقارب):

أجلّــكَ يَا أيُّــهَا المَــعْلَمُ ... وأنــتَ نُوفَمْبَرُنَا المُلْـهمُ
وفيـكَ تحقّـقَ حُلْمٌ كبــيرٌ ... تَبَــاهَى بِــه شَعــْبُنَا
ونادى المنادي بصوتِ الجهادِ ... فكبّر أوراسُنا الأكْــرمُ
ودوّى أزيز الرّصاصِ الجميلُ ... فهامَ بِه جِيلُنا الأعْظمُ
وأَعْـلَنَهَا ثَـوْرَةً كالقَــــضــاءِ ... تُبِيدُ الغُـــــزَاةَ وتَلْتَــهِم
نُفــمْــبَرُ عِمْلاقــتَا السّرمَديَّ ... جزائرُنَا اليَوْمَ لا تَفْهَــمُ !

وأوراسُ رمْزُ الشُّموخِ الأشمُّ وكلُّ الجبالِ به تُقســمُ
(جَــزائرنا يا بــلادَ الجُدُودِ) تغنّى بها جُرْفُنا الأعْظـمُ
فإمّـا إلى ســفرٍ لــلخلــودِ وجــنّات عدنٍ بها ينْعـنمُ

بعث الفاتح من نوفمبر في نفس الشاعر أعظم الوثبات المخلّدة لأروع معركة بطولية خلّدها شعبها الباسل، حيث هبّ كرجل واحد لإنقاذ الوطن من براثن الاستعمار، وشروره، فعبّر بنغمة قويّة رغم المعاناة التي يعانيها شعبه في سبيل نيل الاستقلال.

لقد كانت فكرة الجهاد والاستشهاد في سبيل الجزائر فكرة ضاربة في عمق الانتماء الوطني الذي يؤكّد ضرورة التمسّك بالدّين، لأن الثورة كانت إسلامية في روحها، ومبادئها.

استهلّ الشاعر قصيدته بلفظة الجلال للدلالة على عظمة نوفمبر، باعتباره انجازا عظيما يبعث في النفوس الاعتزاز بالانتماء، ويرمي إلى ترسيخ الانتصار البطولي في المنظومة الفكرية للشعوب، فضلا عن استخدامه بعض الصّيغ اللغوية كأسلوب النداء الموجّه لنوفمبر الذي كان بداية لانطلاق الثورة الكبرى، مستعملا في ذلك أداة النداء (الياء) التي تستعمل لنداء البعيد، فقد أصبح الفاتح من نوفمبر اللحظة الحاسمة في تاريخ الجزائر الثائرة، لهذا أراد الشاعر أن يُسمع كل الجزائريين من الشرق إلى الغرب، ومن الشمال إلى الجنوب بهذا الموضوع.

جانس الشاعر بين نهاية صدر البيت وعجزه بلفظتي (المَعْلَمُ والمُلْهِمُ)، مجانسة صوتية تمثلت في عامل التأثير الذي يولّد تفاعل المتلقي.

حقق الشاعر حلمه في تأكيد الحرية من خلال "الأوراس"، الذي غالبا ما يقترن ذكره بالحديث عن الثورة، والبندقية، وأزيز الرصاص.

حرص الشاعر في بناء صوره على التشبيه والاستعارة، حيث شبه في البيت (الخامس) الثورة بالقضاء المحتّم، والمبيد، وأثرها إيجابي في إبادة المستعمر ودحره،

فيظهر العنصر المشترك في وجه الشبه صريحا، وقام حرف (الكاف) بإشاعته بين (المشبه، والمشبه به)، وهو الالتهام.

كما حقق التشكيل الاستعاري (نفمبر عملاقنا السرمدي) مسحة فنية، إذ شبّه الشاعر نوفمبر بالعملاق، والعملاق رمز للقوة، وفي هذا إشارة إلى أن الجزائر لا تهزم، وستظل صامدة في وجه العدو، فأصبح المشبه والمشبه به شيئا واحدا عن طريق التشبيه البليغ، ما أضفى على الصورة رونقا وجمالا.

جاء البيت السابع في قالب استعارة ـ أيضا ـ (كل الجبال به تقسم)، فالشاعر جعل "أوراس" بمنزلة العاقل "الإنسان"؛ وهذا من مزايا الاستعارة المكنية التي "ترى الجماد حيا ناطقا، والأعجم فصيحا، والأجسام الخرّس مبينة، والمعاني الخافية بادية جليّة"[6].

ترسّم الشاعر بقوله (جزائرنا يا بلاد الجدود)[7] خطى الشاعر الجزائري محمّد الشبوكي، كما وظّف معركة جبل الجرف التي "جرت وقائعها في 22 سبتمبر 1955 قرب تبسة"[8]، التي شكّلت منعطفا حاسما في تاريخ الثورة التحريرية، فلم يسبق للمجاهدين وأن خاضوا من قبل معركة بنفس الشدة والقوة. ومعركة أوراس ومعركة الجرف حققتا انتصارا كبيرا على العدو الذي تكبّد خسارة في الأرواح والعتاد، بفضل الخبرة العسكرية، والإيمان بالقضية الوطنية.

وربما سعى الشاعر من استدعاء هذه الشخصية إلى تحفيز المتلقي إلى التمعن والتأمل في النداء المنفتح على تاريخ عريق يعود إلى الشوق والحنين للأجداد الذين رحلوا، وتركوا أمانة عظيمة تتمثل في الجزائر المسلوبة من الاستعمار الظالم، إضافة إلى تقوية النص، وتوسيع آفاقه الدلالية والشعورية، وفتحه على قراءات شتى.

لم يطو الشاعر قضية الالتزام بل ظل ملازما لها مستدعيا العديد من التناص الديني ليعبّر به عن بعض مواقفه تجاه واقعه، ومن ذلك ما نجده في قوله في عبارة

(وجنّات عدنٍ) بالآية الكريمة "جزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبّهِمْ جَنّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللهُ عنهُمْ ورضوُا عنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ ربّه"[9]، وربما كان غرض الشاعر من هذا الاقتباس بيان مكانة الشهيد المخلّدة كون سيرته مدعاة للفخر، فإذا استشهد صار في مقام الأنبياء. الذين لا يفضلون درجة الشهداء إلا بدرجة النبوة، ويتأكّد ذلك في آية تتحدث عن الشهداء وترفع قيمتهم حتى جعلتهم أحياء عند ربّهم "وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ الله أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ * فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتاهُمُ الله مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمُ يَحْزَنُونْ * يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنْ الله وَفَضْلٍ وَأَنَّ الله لاَ يُضَيّعُ أَجْرَ المُؤْمِنِينَ"[10].

فلا شك أن التناص قد أسهم في تقوية معنى النص، وتجسيد أفكاره ممّا يزيد قيمة وفعاليّة في وجدان المتلقي.

اعتمد الشاعر بحر المتقارب الذي يتميز بإيقاعه الطربي السريع، ولاشك في أن هذه التفعيلات قد وجدت صدى في نفس الشاعر فنظم على إيقاعها هذه القصيدة، التي ناسبت الموضوع المشيد بتضحيات المجاهدين الذين باعوا حياتهم نصرة للوطن، واضطرهم الكفاح إلى سرعة التنقل بين الجبال والوهاد لمناوشة العدو، ومضايقته، ودحره، كما التزم بقافية مطلقة أعطت الموضوع ثراء، والتزم (الميم) رويا، وهو صوت شفوي ليدلّل به على ضعف المواطنين، وعجزهم أمام استعمار غاشم، وقد وظفه ليعبر من خلاله عن رفض الواقع الأليم والمعاناة البائسة.

3.2 الوحدة الوطنية:

حاول الاستعمار الفرنسي تجزئة الجزائر، وتكوين العناصر القبلية، لذلك حاول القادة السيّاسيّون، أن يربطوا بين أفراد الشعب نفسيّا واجتماعيا، ويُحْدثوا بينهم

تجاوبا لا يقتصر على الدين فقط، بل يتعدّاه إلى العقيدة الوطنية، ويتضح ذلك جليّا في قول الشاعر[11] (المديد):

يَا بَنِي الشّعْبِ الكِرَامَ نَحْنُ أَصْحَابُ قَضِيّهْ
ولَنَـا فِي الكَوْنِ رَأْيٌ كَيْفَ تُبْنَى المَدَنِيّـهْ
إنّ أَرْضًا قَدْ تَغَـذّتْ بِتُـرَاثِ البَـشَـرِيّـهْ
وَتَسَامَى الفِكْرُ فِـيهَا وانْـتَـشَى بـالـعَبْـقَرِيهْ
وأَرُوا للشّامـــــتِـــينْ وَجْهَ أَرْضِـي العرَبِيّـهْ
إنّـهُ وَجْـهٌ جَميـــلٌ شَـوّهَـتْــهُ العَصَبِـيّـهْ

فالشاعر هنا يدعو إلى وحدة الشعب، الذي يعدّ السبيل الوحيد لتجاوز محنة الاستعمار، والقضاء عليه عن طريق الصّمود، وخلق التواصل مع أبناء الشعب، لتحقيق الحرية. فالتزم بحر المديد الذي ساعده على ترجمة مشاعره الحزينة، كما التزم القافية المقيّدة ليوضّح الاضطراب والضيق الذي يعاني منهما وسط الحرب.

3. خاتمة:

يعد الشاعر محمد بن رقطان من أهم الشعراء الذين استطاعوا توصيل شعرهم وتأثيرهم في الناس، فقد أثبت مدى تعلقه بمجتمعه، وتأثره بهمومه، وانشغالاته، بكونه شاعرا ملتزما حتى النخاع، وشاهدا على ما يحصل في وطنه، لذلك جاءت أشعاره كلّها صوتا مدويّا من أجل تحقيق كرامة الشعب الجزائري وحريته، ومن النتائج التي توصلنا إليها:

- يبدو جليا أن الشاعر متماه مع هموم وطنه، وملتزما بقضية مصيرية هي الدفاع عن الوطن، وطرد المستعمر الغاصب بشتى الطرق كالتحلي بالشجاعة واتخاذ القلم وسيلة للوقوف في وجه العدو.

- شكّلت قصائد الشاعر بناء متراصا يجمع بين الشكل وجمال ورقي المضمون، ولم يرجّح كفّة على أخرى.
- امتياز اللغة الشعرية بالجمالية الفنية في تصوير الأحداث التاريخية، وفق قوالب انزياحية مستوحاة من عوالم اللغة المجازية.

4.الاقتراحات:

1 ـ يقترح الباحث دراسة الشعر الذي يهتم بقضايا الوطن فكريا وفنيا.

2 ـ تضمين بعض النصوص الإبداعية للشاعر محمد بن رقطان في المنهاج التربوي

3 ـ إعادة طبع، وتوزيع دواوين الشاعر حتى يتسنى الاطلاع عليها، وإقامة دراسات من حولها.

5. الإحالات والهوامش:

[*] بن رقطان محمد بن الأخضر ولد عام 1948م في بلدية بومهرة أحمد، قالمة، دواوينه الشعرية: ألحان من بلادي1977م، الأضواء الخالدة 1980،أغنية للوطن في زمن الفجيعة، حصل على شهادة تكريم من رئيس الجمهورية الجزائرية.

[1] ينظر: عبد أحمد يوسف حمايل، دور إذاعة "أمن اف ام" في تعزيز الانتماء الوطني لدى الطلبة الجامعيين "جامعة الشرق الأوسط " أنموذجا، رسالة ماجستير، كلية الإعلام، جامعة الشرق الأوسط، 2011 ، ص46.

[2] محمد بن رقطان، أغنية للوطن في زمن الفجيعة، منشورات اتحاد الكتاب الجزائريين، الجزائر، 2004، ص19.

[3] عبد القادر عبد الجليل، المقاطع الصوتية وموسيقى الشعر العربي، دار صفاء للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، 1988، ط1، ص164.

[4] المرجع نفسه، ص57.

[5] محمد بن رقطان، أغنية للوطن في زمن الفجيعة، ص63.

[6] عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، تعليق أبو فهر محمود شاكر، دار المدني، جدة، ط1، 1991، ص43.

[7] محمد الشبوكي، ديوان الشيخ الشبوكي، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، د ط، د ت، ص71.

[8] بشير كاشة الفرحي، مختصر وقائع وأحداث ليل الاحتلال الفرنسي للجزائر 1830 ـ 1962، المؤسسة الوطنية للاتصال والإشهار، الجزائر، د ط، 2007، ص152.

[9] سورة البينة، الآية 09.

[10] سورة آل عمران، الآية 169،171.

[11] محمد بن رقطان، زفرات البوح، منشورات فرع قالمة لاتحاد الكتاب الجزائريين، مطبعة المعارف، عنابة، 2005، ص.23

6. قائمة المصادر والمراجع:

القرآن الكريم

أولا: المصادر:

1 ـ محمد بن رقطان، أغنية للوطن في زمن الفجيعة، منشورات اتحاد الكتاب الجزائريين، الجزائر، .2004

2 ـ محمد بن رقطان، زفرات البوح، منشورات فرع قالمة لاتحاد الكتاب الجزائريين، مطبعة المعارف، عنابة، .2005

3 ـ محمد الشبوكي، ديوان الشيخ الشبوكي، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، د ط، د ت.

ثانيا: المراجع:

1 ـ بشير كاشة الفرحي، مختصر وقائع وأحداث ليل الاحتلال الفرنسي للجزائر 1830 ـ 1962، المؤسسة الوطنية للاتصال والإشهار، الجزائر، د ط، .2007

2 ـ عبد أحمد يوسف حمايل، دور إذاعة "أمن اف ام" في تعزيز الانتماء الوطني لدى الطلبة الجامعيين "جامعة الشرق الأوسط " أنموذجا، رسالة ماجستير، كلية الإعلام، جامعة الشرق الأوسط، 2011 .

3 ـ عبد القادر عبد الجليل، المقاطع الصوتية وموسيقى الشعر العربي، دار صفاء للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، 1988، ط1.

4 ـ عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، تعليق أبو فهر محمود شاكر، دار المدني، جدة، ط1، 1991.